ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

والحق سبحانه يبدأ هذه الاية الكريمة بترقيق الحكم الصادر بالتكليف القادم وهو الصيام فكأنه يقول : « يا من امنتم بى واحببتمونى لقد كتبت عليكم الصيام » . وعندما يأتى الحكم ممن آمنت به فانت تثق أنه يخصك بتكليف تأتى منه فائدة لك . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أنك تخاطب ابنك فى أمر فيه مشقة ، لكن نتائجه مفيدة ، فأنت لا تقول له : « يا ابنى افعل كذا » لكنك تقول له : « يا بُنَيَّ افعل كذا » وكأنك تقول له : « يا صغيرى لا تأخذ العمل الذى أكلفك به بما فيه من مشقة بمقاييس عقلك غير الناضج ، ولكن خذ هذا التكليف بمقاييس عقل وتجربة والدك » .

والمؤمنون يأخذون خطاب الحق لهم بـ « يا أيها الذين آمنوا » بمقياس المحبة لكل ما يأتى منه سبحانه من تكليف حتى وإن كان فيه مشقة ، والمؤمنون بقبولهم للإيمان إنما يكونون مع الحق فى التعاقد الإيمانى ، وهو سبحانه لم يكتب الصيام على من لا يؤمن به ؛ لأنه لا يدخل فى دائرة التعاقد الإيمانى وسيلقى سعيرا . والصيام هو لون من الإمساك ؛ لأن معنى « صام » هو « أمسك » والحق يقول :

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة مريم)

وهذا إمساك عن الكلام . إذن فالصوم : معناه الإمساك ، لكن الصوم التشريعى يعنى الصوم عن شهوتى البطن والفرج من الفجر وحتى الغروب . ومبدأ

الصوم لا يختلف من زمن إلى اخر ، فقد كان الصيام الركن التعبدى موجودا فى الديانات السابقة على الإسلام ، لكنه كان إما إمساكا مطلقا عن الطعام ، وإما إمساكا عن ألوان معينة من الطعام كصيام النصارى . فالصيام إذن هو منهج لتربية الإنسان فى الأديان ، وإن اختلفت الأيام عددا ، وإن اختلفت كيفية الصوم ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : « لعلكم تتقون » . ونعرف أن معنى التقوى هو أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية ، وأن نتقى بطش الله ، ونتقى النار وهى من آثار صفات الجلال . وقوله الحق : « لعلكم تتقون » أى أن نهذب ونشذب سلوكنا فنبتعد عن المعاصى . والمعاصى فى النفس إنما تنشأ من شره ماديتها إلى أمر ما . والصيام كما تعلم يضعف شرّة المادية وحدتها وتسلطها فى الجسد . ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم للشباب المراهق وغيره :

« يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »(١) .

وكأن الصوم يشذب شرّة المادية فى الجسم الشاب . وإن تقليل الطعام يعنى تقليل وقود المادة ، فيقل السعار الذى يدفع الإنسان لارتكاب المعاصى . والصيام فى رمضان يعطى الإنسان الاستقامة لمدة شهر ، ويلحظ الإنسان حلاوة الاستقامة فيستمر بها بعد رمضان . والحق لا يطلب منك الاستقامة فى رمضان فقط ، إنما هو سبحانه قد اصطفى رمضان كزمن تتدرب فيه على الاستقامة لتشيع من بعد ذلك فى كل حياتك ؛ لأن اصطفاء الله لزمان أو اصطفاء الله لمكان أو لإنسان ليس لتدليل الزمان ، ولا لتدليل المكان ، ولا لتدليل الإنسان ، وإنما يريد الله من اصطفائه لرسول أن يشيع أثر اصطفاء الرسول فى كل الناس . ولذلك نجد تاريخ الرسل مليئا بالمشقة والتعب ، وهذا دليل على أن مشقة الرسالة يتحملها الرسول وتعبها يقع عليه هو . فالله لم يصطفه ليدلله ، وإنما اصطفاه ليجعله أسوة .

وكذلك يصطفى الله من الزمان أياما لا ليدللها على بقية الأزمنة ، ولكن لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يشيع اصطفاء هذا الزمان فى كل الأزمنة ، كاصطفائه لأيام

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه وأحمد والبيهقى .

رمضان ، والحق سبحانه وتعالى يصطفى الأمكنة ليشيع اصطفاؤها فى كل الأمكنة .

وعندما نسمع من يقول : « زرت مكة والمدينة وذقت حلاوة الشفافية والإشراق والتنوير ، ونسيت كل شيء » . إن من يقول ذلك يظن أنه يمدح المكان ، وينسى أن المكان يفرح عندما يشيع اصطفاؤه فى بقية الأمكنة ؛ فأنت إذا ذهبت إلى مكة لتزور البيت الحرام ، وإذا ذهبت إلى المدينة لتزور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلماذا لا تتذكر فى كل الأمكنة أن الله موجود فى كل الوجود ، وأن قيامك بأركان الإسلام وسلوك الإسلام هو تقرب من الله ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صحيح إن تعبدك وأنت فى جوار بيت الله ، يتميز بالدقة وحسن النية . كأنك وأنت فى جوار بيت الله وفى حضرة رسول الله تستحى أن تفعل معصية . وساعة تسمع « الله أكبر » تنهض للصلاة وتخشع ، ولا تؤذى أحداً ، إذن لماذا لا يشيع هذا السلوك منك فى كل وقت وفى كل مكان ؟ إنك تستطيع أن تستحضر النية التعبدية فى أى مكان ، وستجد الصفاء النفسى العالى .

إذن فحين يصطفى الله زماناً أو مكاناً أو يصطفى إنساناً إنما يشاء الحق سبحانه وتعالى أن يشيع اصطفاء الإنسان فى كل الناس ، واصطفاء المكان فى كل الأمكنة ، واصطفاء الزمان فى كل الأزمنة ، ولذلك أتعجب عندما أجد الناس تستقبل رمضان بالتسبيح وبآيات القرآن وبعد أن ينتهى رمضان ينسون ذلك . وأقول هل جاء رمضان ليحرس لنا الدين ، أم أن رمضان يجيء ليدربنا على أن نعيش بخلق الصفاء فى كل الأزمنة ؟

وقوله الحق : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » يدلنا على أن المسلمين ليسوا بدعاً فى مسألة الصوم ، بل سبقهم أناس من قبل إلى الصيام وإن اختلفت شكلية الصوم . وساعة يقول الحق : « كتب عليكم الصيام » فهذا تقرير للمبدأ ، مبدأ الصوم ، ويُفصِّلُ الحق سبحانه المبدأ من بعد ذلك فيقول :

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

وكلمة « أياماً » تدل على الزمن وتأتى مجملة ، وقوله الحق عن تلك الأيام : إنها « معدودات » يعنى أنها أيام قليلة ومعروفة . ومن بعد ذلك يوضح الحق لنا مدة الصيام فيقول :

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

إذن،فمدة الصيام هى شهر رمضان ، ولأنه سبحانه العليم بالضرورات التى تطرأ

على هذا التكليف فهو يشرع لهذه الضرورات ، وتشريع الله لرخص الضرورة إعلام لنا بأنه لا يصح مطلقاً لأى إنسان أن يخرج عن إطار الضرورة التى شرعها الله ، فبعض من الذين يتفلسفون من السطحيين يحبون أن يزينوا لأنفسهم الضرورات التى تبيح لهم الخروج عن شرع الله ، ويقول الواحد منهم :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

ونقول : إنك تفهم وتحدد الوُسعَ على قدر عقلك ثم تقيس التكليف عليه ، برغم أن الذى خلقك هو الذى يُكلف ويعلم أنك تَسَعُ التكليف ، وهو سبحانه لا يكلف إلا بما فى وسعك ؛ بدليل أن المشرع سبحانه يعطى الرخصة عندما يكون التكليف ليس فى الوسع . ولنر رحمة الحق وهو يقول : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » ، وكلمة « مريضاً » كلمة عامة ، وأنت فيها حجة على نفسك وبأمر طبيب مسلم حاذق يقول لك : « إن صمت فأنت تتعب » والمرض مشقته مزمنة فى بعض الأحيان ، ولذلك تلزم الفدية بإطعام مسكين .

وكذلك يرخص الله لك عندما تكون « على سفر » . وكلمة « سفر » هذه مأخوذة من المادة التى تفيد الظهور والانكشاف ، ومثال ذلك قولنا : « أسفر الصبح » . وكلمة « سفر » تفيد الانتقال من مكان تقيم فيه إلى مكان جديد ، وكأنك كلما مشيت خطوة تتكشف لك أشياء جديدة ، والمكان الذى تنتقل إليه هو جديد بالنسبة لك ، حتى ولو كنت قد اعتدت أن تسافر إليه ؛ لأنه يصير فى كل مرة جديدا لما ينشأ عنه من ظروف عدم استقرار فى الزمن ، صحيح أن شيئاً من المبانى والشوارع لم يتغير ، ولكن الذى يتغير هو الظروف التى تقابلها ، وصحيح أن ظروف السفر فى زماننا قد اختلفت عن السفر من قديم الزمان .

إن المشقة فى الانتقال قديماً كانت عالية ، ولكن لنقارن سفر الأمس مع سفر اليوم من ناحية الإقامة . وستجد أن سفرَ الآن بإقامة الآن فيه مشقة ، ومن العجب أن الذين يناقشون هذه الرخصة يناقشونها ليمنعوا الرخصة ، ونقول لهم : اعلموا أن

تشريع الله للرخص ينقلها إلى حكم شرعى مطلوب ؛ وفى ذلك يروى لنا جابر ابن عبدالله رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فرأى زحامًا ورجلاً قد ظلّل عليه فقال : « ما هذا » فقالوا : صائم فقال : « ليس من البر الصوم فى السفر »[1] .

وعندما تقرأ النص القرآنى تجده يقول : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر ، فعدة من أيام أخر » أى أن مجرد وجود فى السفر يقتضى الفطر والقضاء فى أيام أخر ، ومعنى ذلك أن الله لا يقبل منك الصيام ، صحيح أنه سبحانه لم يقل لك : « افطر » ولكن مجرد أن تكون مريضاً مرضاً مؤقتا أو مسافراً فعليك الصوم فى عدة أيام أخر وأنت لن تشرع لنفسك .

ولنا فى رسول الله أسوة حسنة فقد نهى عن صوم يوم عيد الفطر ، لأن عيد الفطر سُمى كذلك ، لأنه يحقق بهجة المشاركة بنهاية الصوم واجتياز الاختبار ، فلا يصح فيه الصوم ، والصوم فى أول أيام العيد إثم ، لكن الصوم فى ثانى أيام العيد جائز ، لحديث محمّن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن صيام يومين : يوم الفطر ويوم الأضحى »[2] .

وقد يقول قائل : ولكن الصيام فى رمضان يختلف عن الصوم فى أيام أخر ؛ لأن رمضان هو الشهر الذى أنزل فيه القرآن . وأقول : إن الصوم هو الذى يتشرف بمجيئه فى شهر القرآن ، ثم إن الذى أنزل القرآن وفرض الصوم فى رمضان هو سبحانه الذى وَهَب الترخيص بالفطر للمريض أو المسافر ونقله إلى أيام أخر فى غير رمضان ، وسبحانه لا يعجز عن أن يهب الأيام الأخر نفسها التجليات الصفائية التى يهبها للعبد الصائم فى رمضان . إن الحقّ سبحانه حين شرع الصوم فى رمضان إنما أراد أن يشيع الزمن الضيق ـ زمن رمضان ـ فى الزمن المتسع وهو مدار العام . ونحن نصوم رمضان فى الصيف ونصومه فى الشتاء وفى الخريف والربيع ، إذن فرمضان يمر على كل العام .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الصوم .

(٢) رواه مسلم .

ويقول الحق : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » والطوق هو القدرة ، فيطيقونه أى يدخل فى قدرتهم وفى قولهم ، والفدية هى إطعام مسكين .

ويتساءل الإنسان : كيف يطيق الإنسان الصوم ثم يؤذن له بالفطر مقابل فدية هى إطعام مسكين ؟ وأقول : إن هذه الآية دلت على أن فريضة الصوم قد جاءت بتدرج ، كما تدرج الحق فى قضية الميراث ، فجعل الأمر بالوصية ، وبعد ذلك نقلها إلى الثابت بالتوريث ؛ كذلك أراد الله أن يُخرج أمة محمد صلى الله عليه وسلم من دائرة أنهم لا يصومون إلى أن يصوموا صياماً يُخيّرهُم فيه لأنهم كانوا لا يصومون ثم جاء الأمر بعد ذلك بصيام لا خيار فيه ، فكأن الصوم قد فُرض أولاً باختيار ، وبعد أن اعتاد المسلمون وألفُوا الصوم جاء القول الحق: « فمَنْ شهد منكم الشهر فليصمه » وفى هذه الآية لم يذكر الحق الفدية أو غيرها . إذن كانت فرضية الصوم أولاً اختيارية بقوله الحق : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » ، ثم جاء القرار الارتقائى ، فصار الصوم فريضة محددة المدة وهى شهر رمضان « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمَنْ شهد منكم الشهر فليصمه » وبذلك انتهت مسألة الفدية بالنسبة لـمَنْ يطيق الصوم ، أما الذى لا يطيق أصلاً بأن يكون مريضاً أو شيخاً ، فإن قال الأطباء المسلمون : إن هذا مرض « لا يُرجى شفاؤه » نقول له : أنت لن تصوم أياماً أخر وعليك أن تفدى .

لقد جاء تشريع الصوم تدريجياً ككثير من التشريعات التى تتعلق بنقل المكلفين من إلف العادات ، كالخمر مثلاً والميسر والميراث ، وهذه أمور أراد الله أن يتدرج فيها. ويقول قائل : ما دام فرض الصيام كان اختيارياً فلماذا قال الحق بعد الحديث عن الفدية « فمَنْ تطوع خيراً فهو خير له » ؟

وأقول : عندما كان الصوم اختيارياً كان لابد أيضاً من فتح باب الخير والاجتهاد فيه ، فمَنْ صام وأطعم مسكيناً فهذا أمر مقبول منه ، ومَنْ صام وأطعم مسكينين ، فذاك أمر أكثر قبولاً . ومَنْ يدخل مع الله من غير حساب يؤتيه الله من غير حساب ، ومَنْ يدخل على الله بحساب ، يعطيه الحق بحساب ، وقول الحق : « وأن تصوموا خير لكم » هو خطوة فى الطريق لتأكيد فرضية الصيام ، وقد تأكد ذلك الفرض بقوله الحق : « فمَنْ شهد منكم الشهر فليصمه » ولم يأت فى هذه الآية بقوله : « وأن

تصوموا خير لكم » لأن المسألة قد انتقلت من الاختيار إلى الفرض .

إذن فالصيام هو منهج لتربية الإنسان ، وكان موجوداً قبل أن يبعث الحق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم دخل الصوم على المسلمين اختيارياً فى البداية ، ثم فريضة من بعد ذلك . وقد شرع الله الصوم فى الإسلام بداية بأيام معدودة ثم شرح لنا الأيام المعدودة بشهر رمضان .

والذى يطمئن إليه خاطرى أن الله بدأ مشروعية الصوم بالأيام المعدودة ، ثلاثة أيام من كل شهر وهو اليوم العاشر والعشرون ، والثلاثون من أيام الشهر ، كانت تلك هى الأيام المعدودة التى شرع الله فيها أن نصوم ؛ وكان الإنسان مخيراً فى تلك الأيام المعدودة : إن كان مطيقا للصوم أن يصوم أو أن يفتدى ، أما حين شرع الله الصوم فى رمضان فقد أصبح الصوم فريضة تعبدية وركنا من أركان الإسلام ، وبعد ذلك جاءنا الاستثناء للمريض والمسافر .

إذن لنا أن نلحظ أن الصوم فى الإسلام كان على مرحلتين : المرحلة الأولى : أن الله سبحانه وتعالى شرع صيام أيام معدودة ، وقد شرحنا أحكامها ، والمرحلة الثانية هى تشريع الصوم فى زمن محدود . . شهر رمضان ، والعلماء الذين ذهبوا إلى جواز رفض إفطار المريض وإفطار المسافر لأنهم لم يرغبوا أن يردوا حكمة الله فى التشريع ، أقول لهم : إن الحق سبحانه وتعالى حين يرخص لابد أن تكون له حكمة أعلى من مستوى تفكيرنا ، وأن الذى يؤكد هذا أن الحق سبحانه وتعالى قال : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر » .

الحكم هنا هو الصوم عدة أيام أخر ، ولم يقل فمن أفطر فعليه عدة من أيام أخر ، أى أن صوم المريض والمسافر قد انتقل إلى وقت الإقامة بعد السفر ، والشفاء من المرض ، فالذين قالوا من العلماء : هى رخصة ، إن شاء الإنسان فعلها وإن شاء تركها ، لابد أن يقدر فى النص القرآنى « فمن كان منكم مريضا أو على سفر » ، فأفطر ، « فعدة من أيام أخر » . ونقول : ما لا يحتاج إلى تأويل فى النص أولى فى الفهم مما يحتاج إلى تأويل ، وليكن أدبنا فى التعبير ليس أدب ذوق ، بل أدب طاعة ؛ لأن الطاعة فوق الأدب .

إذن فالذين يقولون هذا لا يلحظون أن الله يريد أن يخفف عنا ، ثم ما الذى يمنعنا أن نفهم أن الحق سبحانه وتعالى أراد للمريض وللمسافر رخصة واضحة ، فجعل صيام أى منها فى عدة من الأيام الأخر . فإن صام فى رمضان وهو مريض أو على سفر فليس له صيام ، أى أن صيامه لا يعتد به ولا يقبل منه ، وهذا ما أرتاح إليه ، ولكن علينا أن ندخل فى اعتبارنا أن المراد من المرض والسفر هنا ، هو ما يخرج مجموع ملكات الإنسان عن سويّتها .

وما معنى كلمة « شهر » التى جاءت فى قوله : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه »؟ . إن كلمة « شهر » مأخوذة من الإعلام والإظهار ، وما زلنا نستخدمها فى الصفقات فنقول مثلا : لقد سجلنا البيع فى « الشهر العقارى » أى نحن نُعْلِمُ الشهر العقارى بوجود صفقة ، حتى لا يأتى بعد ذلك وجود صفقة على صفقة ، فكلمة « شهر » معناها الإعلام والإظهار ، وسُميت الفترة الزمنية « شهراً » لماذا ؟ لأن لها علامة تظهرها ، ونحن نعرف أننا لا نستطيع أن نعرف الشهر عن طريق الشمس ؛ فالشمس هى سمة لمعرفة تحديد اليوم ، فاليوم من مشرق الشمس إلى مشرق آخر وله ليل ونهار .

ولكن الشمس ليست فيها علامة مميزة سطحية ظاهرة واضحة تحدد لنا بدء الشهر ، إنما القمر هو الذى يحدد تلك السمة والعلامة بالهلال الذى يأتى فى أول الشهر ، ويظهر هكذا كالعرجون القديم ، إذن فالهلال جاء لتمييز الشهر ، والشمس لتمييز النهار ، ونحن نحتاج لهما معا فى تحديد الزمن .

إن الحق سبحانه وتعالى يربط الأعمال العبادية بآيات كونية ظاهرة التى هى الهلال ، وبعد ذلك نأخذ من الشمس اليوم فقط ؛ لأن الهلال لا يعطيك اليوم ، فكأن ظهور الهلال على شكل خاص بعدما يأتى المحاق وينتهى ، فميلاد الهلال بداية إعلام وإعلان وإظهار أن الشهر قد بدأ ، ولذلك تبدأ العبادات منذ الليلة الأولى فى رمضان ؛ لأن العلامة ـ الهلال ـ مرتبطة بالليل ، فنحن نستطلع الهلال فى المغرب ، فإن رأيناه نقل شهر رمضان بدأ . ولم تختلف هذه المسألة لأن النهار لا يسبق الليل ، إلا فى عبادة واحدة وهى الوقوف بعرفة ، فالليل الذى يجىء بعدها هو الملحق بيوم عرفة .

وكلمة « رمضان » مأخوذة من مادة (الراء ـ والميم ـ والضاد) ، وكلها تدل على

الحرارة وتدل على القيظ » ورمض الإنسان « أى حرّ جوفه من شدة العطش ، و« الرمضاء » أى الرمل الحار ، وعندما يقال : « رمضت الماشية » أى أن الحر أصاب خفها فلم تعد تقوى أن تضع رجلها على الأرض ، إذن فرمضان مأخوذ من الحر ومن القيظ ، وكأن الناس حينما أرادوا أن يضعوا أسماء للشهور جاءت التسمية لرمضان فى وقت كان حاراً ، فسموه رمضان كما أنهم ساعة سموا مثلا « ربيعاً الأول وربيعاً الآخر » كان الزمن متفقاً مع وجود الربيع ، وعندما سموا جمادى الأولى وجمادى الآخرة » كان الماء يجْمُد فى هذه الأيام .

فكأنهم لاحظوا الأوصاف فى الشهور ساعة التسمية ، ثم دار الزمن العربى الخاص المحدد بالشهور القمرية فى الزمن العام للشمس . فجاء رمضان فى صيف ، وجاء فى خريف ، لكن ساعة التسمية كان الوقت حاراً .

وهب أن إنسانا جاءه ولد جميل الشكل ، فسماه « جميلاً » . وبعد ذلك مرض والعياذ بالله بمرض الجدرى فشوه وجهه ، فيكون الاسم قد لوحظ ساعة التسمية ، وإن طرأ عليه فيما بعد ذلك ما يناقض هذه التسمية ، وكأن الحق سبحانه وتعالى حينما هيأ للعقول البشرية الواضعة للألفاظ أن يضعوا لهذا الشهر ذلك الاسم ، دل على المشقة التى تعترى الصائم فى شهر رمضان ، وبعد ذلك يعطى له سبحانه منزلة تؤكد لماذا سُمى ، إنه الشهر الذى أنزل فيه القرآن ، والقرآن إنما جاء منهج هداية للقيم ، والصوم امتناع عن الاقتيات ، فمنزلة الشهر الكريم أنه يربى البدن ويربى النفس ، فناسب أن يوجد التشريع فى تربية البدن وتربية القيم مع الزمن الذى جاء فيه القرآن بالقيم ، « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » . وإذا سمعت « أنزل فيه القرآن » فافهم أن هناك كلمات « أنزل » و« نزّل » و« نزل » ، فإذا سمعت كلمة « أنزل » تجدها منسوبة إلى الله دائما :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ ﴾

(سورة القدر)

أما فى كلمة « نَزَلَ » فهو سبحانه يقول :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾

(سورة الشعراء)

وقال الحق :

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾

(من الآية ٤ سورة القدر)

إذن فكلمة « أنزل » مقصورة على الله ، إنما كلمة « نَزَّلَ » تأتى من الملائكة ، و« نَزَلَ » تأتى من الروح الأمين الذى هو « جبريل » ، فكأن كلمة « أنزل » بهمزة التعدية ، عدت القرآن من وجوده مسطوراً فى اللوح المحفوظ إلى أن يبرز إلى الوجود الإنسانى ليباشر مهمته .

وكلمة « نَزَلَ » و« نَزَّلَ » نفهمها أن الحق أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا مناسباً للأحداث ومناسباً للظروف ، فكان الإنزال فى رمضان جاء مرة واحدة ، والناس الذين يهاجموننا يقولون كيف تقولون : إن رمضان أنزل فيه القرآن مع أنكم تشيعون القرآن فى كل زمن ، فينزل هنا وينزل هناك وقد نزل فى مدة الرسالة المحمدية ؟

نقول لهم : نحن لم نقل إنه « نزل » ولكننا قلنا « أنزل » ، فأنزل : تعدى من العِلم الأعلى إلى أن يباشر مهمته فى الوجود . وحين يباشر مهمته فى الوجود ينزل منه « النَّجم » - يعنى القسط القرآنى - موافقا للحدث الأرضى ليجىء الحكم وقت حاجتك ، فيستقر فى الأرض ، إنما لو جاءنا القرآن مكتملاً مرة واحدة فقد يجوز أن يكون عندنا الحكم ولا نعرفه ، لكن حينما لا يجىء الحكم إلا ساعة نحتاجه ، فهو يستقر فى نفوسنا .

وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - أنت مثلاً تريد أن تُجهز صيدلية للطوارىء فى المنزل ، وأنت تضع فيها كل ما يخص الطوارىء التى تتخيلها ، ومن الجائز أن يكون عندك الدواء لكنك لست فى حاجة له ، أما ساعة تحتاج الدواء وتذهب لتصرف تذكرة الطبيب من الصيدلية ، عندئذ لا يحدث لبس ولا اختلاط ، فكذلك حين يُريد الله حكماً من الأحكام ليعالج قضية من قضايا الوجود فهو لا ينتظر حتى ينزل فيه حكم من الملأ الأعلى من اللوح المحفوظ ، إنما الحكم موجود فى السماء الدنيا ، فيقول للملائكة : تنزلوا به ، وجبريل ينزل فى أى وقت شاء له الحق أن

ينزل من أوقات البعثة المحمدية ، أو الوقت الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يوجد فيه الحكم الذى يغطى قضية من القضايا .

إذن فحينما يوجد من يريد أن يشككنا نقول له : لا .
نحن نملك لغة عربية دقيقة ، وعندنا فرق بين « أنزل » و « نَزَّل » و« نزل » .
ولذلك فكلمة « نزل » تأتى للكتاب ، وتأتى للنازل بالكتاب يقول تعالى :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويقول سبحانه :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة الاسراء)

وكان بعض من المشركين قد تساءلوا : لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ؟ . وانظر إلى الدقة فى الهيئة التى أراد الله بها نزول القران فقد قال الحق :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وعندما نتأمل قول الحق : « كذلك » فهى تعنى أنه سبحانه أنزل القرآن على الهيئة التى نزل بها لزوماً لتثبيت فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ولو نزل مرة واحدة لكان تكليفاً واحداً ، وأحداث الدعوة شتى وكل لحظة تحتاج إلى تثبيت .
فحين يأتى الحدث ينزل نَجْم قرآنى فيعطى به الحق تثبيتا للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأضرب مثلا بسيطا ـ ولله المثل الأعلى والمنزه عن كل تشبيه ـ أن ابنا لك يريد حُلة

جديدة أتحضرها له مرة واحدة ، فتصادفه فرحة واحدة ، أم تحضر له فى يوم ربطة العنق واليوم الذى يليه تحضر له القميص الجديد ، ثم تحضر له « البدلة » ؟، إذن فكل شىء يأتى له وقع وفرحة .

والحق ينزل القرآن منجما لماذا ؟ « لنثبت به فؤادك » ومعنى « لنثبت به فؤادك » أى أنك ستتعرض لمنغصات شتى ، وهذه المنغصات الشتى كل منها يحتاج إلى تَرْبِيتٍ عليك وتهدئة لك ، فيأتى القسط القرآنى ليفعل ذلك وينير أمامك الطريق . « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » أى لم نأت به مرة واحدة بل جعلناه مرتباً على حسب ما يقتضيه من أحداث . حتى يتم العمل بكل قسط ، ويهضمه المؤمن ثم نأتى بقسط آخر . ولنلحظ دقة الحق فى قوله عن القرآن :

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

إن الكفار لهم اعتراضات ، ويحتاجون إلى أمثلة ، فلو أنه نزل جملة واحدة لأهدرَتْ هذه القضية ، وكذلك حين يسأل المؤمنون يقول القرآن : يسئلونك عن كذا وعن كذا ، ولو شاء الله أن يُنزل القرآن دفعة واحدة ، فكيف كان يغطى هذه المسألة ؟ فمادامو سوف يسألون فلينتظر حتى يسألوا ثم تأتى الإجابة بعد ذلك .

إذن فهذا هو معنى « أنزل » أى أنه أُنزل من اللوح المحفوظ ، ليباشر مهمته فى الوجود ، وبعد ذلك نزل به جبريل ، أو تتنزل به الملائكة على حسب الأحداث التى جاء القرآن ليغطيها .

ويقول الحق : « أُنزل فيه القرآن هدى للناس » . ونعرف أن كلمة « هدى » معناها : الشىء الموصل للغاية بأقصر طريق ، فحين تضع إشارات فى الطريق الملتبسة ، فمعنى ذلك أننا نريد للسالك أن يصل إلى الطريق بأيسر جهد ، و« هدى » تدل على علامات لنهتدى بها يضعها الخالق سبحانه ، لأنه لو تركها للخلق ليضعوها لاختلفت الأهواء ، وعلى فرض أننا سنسلم بأنهم لا هوى لهم ويلتمسون الحق ، وعقولهم ناضجة ، سنسلم بكل ذلك ، ونتركهم كى يضعوا المعالم ، ونتساءل : وماذا عن الذى يضع تلك العلامات ، وبماذا يهتدى ؟ .

إذن فلابد أن يوجد له هدى من قبل أن يكون له عقل يفكر به ، كما أن الذى يضع هذاالهدى لابد ألا ينتفع به ، وعلى ذلك فالله سبحانه أغنى الأغنياء عن الخلق ولن ينتفع بأى شيء من العباد ، أما البشر فلو وضعوا « هدى » فالواضع سينتفع به ، ورأينا ذلك رأى العين ؛ فالذى يريد أن يأخذ مال الأغنياء ويغتنى يخترع المذهب الشيوعى ، والذى يريد أن يمتص عرق الغير يضع مذهب الرأسمالية ، مذاهب نابعة من الهوى ، ولا يمكن أن يُبرأ أحد من فلاسفة المذاهب نفسه من الهوى : الرأسمالى يقنن فيميل لهوى نفسه ، الشيوعى يميل لنفسه ، ونحن نريد مَن يُشرع لنا دون أن ينتفع بما شرع ، ولا يوجد من تتطابق معه هذه المواصفات إلا الحق سبحانه وتعالى فهو الذى يشرع فقط ، وهو الذى يشرع لفائدة الخلق فقط .

والذى يدلك على ذلك أنك تجد تشريعات البشر تأتى لتنقض تشريعات أخرى ، لأن البشر على فرض أنهم عالمون فقد يغيب عنهم أشياء كثيرة ، برغم أن الذى يضع التشريع يحاول أن يضع أمامه كل التصورات المستقبلية ، ولذلك نجد التعديلات تجرى دائما على التشريعات البشرية ؛ لأن المشرع غاب عنه وقت التشريع حكم لم يكن فى باله ، وأحداث الحياة جاءت فلفتته إليه ، فيقول : التشريع فيه نقص ولم يعد مُلائماً ، نعدله .

إذن فنحن نريد فى من يضع الهدى والمنهج الذى يسير عليه الناس بجانب عدم الانتفاع بالمنهج لابد أيضا أن يكون عالما بكل الجزئيات التى قد يأتى بها المستقبل ، وهذا لا يتأتى إلا فى إله عليم حكيم ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

ستتبعون السبل ، هذا له هوى ، وهذا له هوى ، فتوجد القوانين الوضعية التى تبددنا كلنا فى الأرض ، لأننا نتبع أهواءنا التى تتغير ولا نتبع منهج من ليس له نفع فى هذه المسألة ، ولذلك أقول : افطنوا جيداً إلى أن الهدى الحق الذى لا أعترض عليه هو هدى الله ، « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » . والقرآن فى جملته « هدى » والفرقان هو أن يضع فارقاً فى أمور يلتبس فيها الحق بالباطل ، فيأتى التنزيل الحكيم ليفرق بين الحق والباطل .

ويقول الحق : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » ، وحين تجد تعقيباً على قضية فافهم أن من شهد منكم الشهر فليصمه ولابد أن تقدر من شهد الشهر فليصمه إن كان غير مريض ، وإن كان غير مسافر ، لابد من هذا مادام الحق قد جاء بالحكم .

و« شهد » هذه تنقسم قسمين : « فمن شهد » أي من حضر الشهر وأدركه وهو غير مريض وغير مسافر أى مقيم ، « ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . ونريد أن نفهم النص بعقلية من يستقبل الكلام من إله حكيم ، إن قول الله : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

تعقيب على ماذا ؟ تعقيب على أنه أعفى المريض وأعفى المسافر من الصيام ، فكأن الله يريد بكم اليسر ، فكأنك لو خالفت ذلك لأردت الله معسراً لا ميسراً والله لا يمكن أن يكون كذلك ، بل أنت الذى تكون معسراً على نفسك ، فإن كان الصوم له قداسة عندك ، ولا تريد أن تكون أسوة فلا تفطر أمام الناس ، والتزم بقول الله : « فعدة من أيام أخر » لأنك لو جنحت إلى ذلك لجعلت الحكم فى نطاق التعسير ، فنقول لك : لا ، إن الله يريد بك اليسر ، فهل أنت مع العبادة أم أنت مع المعبود ؟ أنت مع المعبود بطبيعة الإيمان .

ومثال آخر نجده فى حياتنا : هناك من يأتى ليؤذن ثم بعد الأذان يجهر بقول : « الصلاة والسلام عليك يا سيدى يا رسول الله » يقول : إن هذا حب لرسول الله . لكن هل أنت تحب الرسول إلا بما شرع ؟ إنه قد قال : (إذا سمعتم النداء فقولوا مثلما يقول المؤذن ثم صلوا على)[1] فقد سمح الرسول صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن ولمن يسمع أن يصلى عليه فى السر ، لا أن يأتى بصوت الأذان الأصيل وبلهجة الأذان الأصيلة ونصلى على النبى ، لأن الناس قد يختلط عليها ، وقد يفهم بعضهم أن ذلك من أصول الأذان . إننى أقول لمن يفعل ذلك : يا أخى ، ألا توجد صلاة مقبولة على النبى إلا المجهور بها ؟ لا ، إن لك أن تصلى على النبى ، لكن فى سرك .

(١) هذا الحديث أخرجه الإمامان البخارى ومسلم ، وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والإمام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى .

وكذلك إن جاء من يفطر فى رمضان لأنه مريض أو على سفر ، نقول له : استتر ، حتى لا تكون أسوة سيئة ؛ لأن الناس لا تعرف أنك مريض أو على سفر ، استتر كى لا يقول الناس : إن مسلماً أفطر . ويقول الحق : « ولتكملوا العدة » فمعناها كى لا تفوتكم أيام من الصيام .

انظروا إلى دقة الأداء القرآنى فى قوله : « ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » . إن العبادة التى نفهم أن فيها مشقة هى الصيام وبعد ذلك تكبرون الله ؛ لأن الحق سبحانه عالم أن عبده حين ينصاع لحكم أراده الله وفيه مشقة عليه مثل الصوم ويتحمله ، وعندما يشعر بأنه قد انتهى منه إنه سبحانه عالم بأن العبد سيجد فى نفسه إشراقاً يستحق أن يشكر الله الذى كلفه بالصوم ووفقه إلى أدائه ؛ لأن معنى « ولتكبروا الله » يعنى أن تقول: « الله أكبر » وأن تشكره على العبادة التى كنت تعتقد أنها تضنيك ، لكنك وجدت فيها تجليات وإشراقات ، فتقول : الله أكبر من كل ذلك ، الله أكبر ؛ لأنه حين يمنعنى يعطينى ، وسبحانه يعطى حتى فى المنع ؛ فأنت تأخذ مقومات حياة ويعطيك فى رمضان ما هو أكثر من مقومات الحياة وهو الإشراقات التى تتجلى لك ، وتذوق حلاوة التكليف وإن كان قد فوت عليك الاستمتاع بنعمة فإنه أعطاك نعمة أكثر منها .

وبعد ذلك فالنسق القرآنى ليس نسقاً من صنع بشر ، فنحن نجد أن نسق البشر يقسم الكتاب أبواباً وفصولاً ومواد كلها مع بعضها ، ويُفصل كل باب بفصوله ومواده ، وبعد ذلك ينتقل لباب آخر ، لكن الله لا يريد الدين أبواباً ، وإنما يريد الدين وحدة متكاتفة فى بناء ذلك الإنسان ، فيأتى بعد قوله : « ولتكبروا الله » بـ « ولعلكم تشكرون » ومعنى ذلك أنكم سترون ما يجعلكم تنطقون بـ « الله أكبر » ؛ لأن الله أسدى إليكم جميلاً ، وساعة يوجد الصفاء بين « العابد » وهو الإنسان و« المعبود » وهو الرب ، ويثق العابد بأن المعبود لم يكلفه إلا بما يعود عليه بالخير ، هنا يحسن العبد ظنه بربه ، فيلجأ إليه فى كل شىء ، ويسأله عن كل شىء ، ولذلك جاء هنا قول الحق :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

ومادمت قد ذقت حلاوة ما أعطاك الحق من إشراقات صفائية فى الصيام فأنت ستتجه إلى شكره سبحانه ، وهذا يناسب أن يرد عليك الحق فيقول : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب » ونلحظ أن « إذا » جاءت ، ولم تأت « إن » فالحق يؤكد لك أنك بعدما ترى هذه الحلاوة ستشكر الله ؛ لأنه سبحانه يقول فى الحديث القدسى :

« ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين »(1) .

فمادام سبحانه سيجيب الدعوة ، وأنت قد تكون من العامة لا إمامة لك ، وكذلك لست مظلوماً ، إذن تبقى دعوة الصائم . وعندما تقرأ فى كتاب الله كلمة « سأل » ستجد أن مادة السؤال بالنسبة للقرآن وردت وفى جوابها « قل » .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وقوله :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

---

(١) هذا الحديث أخرجه الترمذى وابن ماجة والإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة .

وقوله :

﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾

(من الآية ٢١٥ سورة البقرة)

وكل « يسألونك » يأتى فى جوابها « قل » إلا آية واحدة جاءت فيها « فقل » بالفاء ، وهى قول الحق :

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى ﴾

(من الآية ١٠٥ سورة طه)

انظر إلى الدقة الأدائية : الأولى « قل » ، وهذه « فقل » ، فكأن « يسألونك عن الخمر والميسر » يؤكد أن السؤال قد وقع بالفعل ، ولكن قوله: « يسألونك عن الجبال » ، فالسؤال هذا ستتعرض له ، فكأن الله أجاب عن أسئلة وقعت بالفعل فقال : « قل » ، والسؤال الذى سيأتى من بعد ذلك جاء وجاءت إجابته بـ « فقل » أى أعطاه جواباً مسبقاً ، إذن ففيه فرق بين جواب عن سؤال حدث ، وبين جواب عن سؤال سوف يحدث ، ليدلك على أن أحداً لن يفاجىء الله بسؤال ، « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً » .

لكن نحن الآن أمام آية جاء فيها سؤال وكانت الإجابة مباشرة : « وإذا سألك عبادى عنى » . فلم يقل : فقل: إنى قريب ؛ لأن قوله: « قل » هو عملية تطيل القرب ، ويريد الله أن يجعل القرب فى الجواب عن السؤال بدون وساطة « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب » . لقد جعل الله الجواب منه لعباده مباشرة ، وإن كان الذى سيبلغ الجواب هو رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذه لها قصة : لقد سألوا رسول الله : أقريب ربك فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟

لأن عادة البعيد أن يُنادى ، أما القريب فيُناجى ، ولكى يبين لهم القرب ، حذف كلمة « قل » ، فجاء قول الحق: « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب » وما فائدة ذلك

القرب ؟ إن الحق يقول : « أجيب دعوة الداع إذا دعان » ولكن ما الشروط اللازمة لذلك ؟

لقد قال الحق : « وإذا سألك عبادى » ونعرف أن فيه فرقا بين « عبيد » و« عباد » ، صحيح أن مفرد كل منهما « عبد » ، لكن هناك « عبيد » و« عباد » ، وكل من فى الأرض عبيد لله ، ولكن ليس كل من فى الأرض عباداً لله ، لماذا ؟

لأن العبيد هم الذين يُقهرون فى الوجود كغيرهم بأشياء ، وهناك من يختارون التمرد على الحق ، لقد أخذوا اختيارهم تمرداً ، لكن العبد هم الذين اختاروا الانقياد لله فى كل الأمور . إنهم منقادون مع الجميع فى أن واحدا لا يتحكم متى يولد ، ولا متى يموت ، ولا كيف يوجد ، لكن العباد يمتازون بأن الأمر الذى جعل الله لهم فيه اختياراً قالوا : صحيح يارب أنت جعلت لنا الاختيار ، وقد اخترنا منهجك ، ولم نترك هَوانا ليحكم فينا ، أنت قلت سبحانك : « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » ونحن قبلنا التكليف منك يارب .

ولا يقول لك ربك:« افعل » إلا إذا كنت صالحاً للفعل ولعدم الفعل . ولا يقول لك:« لا تفعل » إلا إذا كنت صالحاً لهذه ولهذه . إذن فكلمة « افعل » و« لاتفعل » تدخل فى الأمور الاختيارية ، والحق قد قال « افعل » و« لاتفعل » ثم ترك أشياء لا يقول لك فيها « افعل » و« لا تفعل » ، فتكون حراً فى أن تفعلها أو لا تفعلها ، اسمها « منطقة الاختيار المباح » ، فهناك اختيار قُيِّدَ بالتكليف بافعل ولا تفعل ، واختيار بقى لك أن تفعله أو لا تفعله ولا يترتب عليه ضرر ؛ فالذى أخذ الاختيار وقال : يارب أنت وهبتنى الاختيار ، ولكننى تركت لك يا واهب الاختيار أن توجه هذا الاختيار كما تحب ، أنا سأتنازل عن اختيارى ، وما تقول لى : « افعل » سأفعله ، والذى تقول لى : « لا تفعله » لن أفعله .

إذن فالعباد هم الذين أخذوا منطقة الاختيار ، وسلموها لمن خلق فيهم الاختيار ، وقالوا لله : وإن كنت مختاراً إلا أننى أمتثك على نفسى . إن العباد هم الذين ردوا أمر الاختيار إلى من وهب الاختيار ويصفهم الحق بقوله :

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

هؤلاء هم عباد الرحمن ، ولذلك يقول الحق للشيطان فى شأنهم :

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الحجر)

إذن فللشيطان سلطان على مطلق عبيد ؛ لأنه يدخل عليهم من باب الاختيار ، ولم تأت كلمة « عبادى » لغير هؤلاء إلا حين تقوم الساعة ، ويحاسب الحق الذين أضلوا العباد فيقول :

﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى ﴾

(من الآية ١٧ سورة الفرقان)

ساعة تقوم الساعة لا يوجد الاختيار ويصير الكل عباداً ؛ حتى الكفرة لم يعد لهم اختيار . وحين يقول الحق : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » فالعباد الذين التزموا لله بالمنهج الإيمانى لن يسألوا الله إلا بشىء لا يتنافى مع الإيمان وتكاليفه .

والحق يقول : « فليستجيبوا لى » ؛ لأن الدعاء يطلب جواباً ، ومادمت تطلب إجابة الدعاء فتأدب مع ربك ؛ فهو سبحانه قد دعاك إلى منهجه فاستجب له إن كنت تحب أن يستجيب الله لك « فليستجيبوا لى » ، وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه وتعالى فى كلمة « الداع » ولا يتركها مطلقة ، فيقول : « إذا دعان » فكأن كلمة « دعا » تأتى ويدعو بها الإنسان ، وربما اتجه بالدعوة إلى غير القادر على الإجابة ، ومثال ذلك قول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ .. (١٩٤) ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله الحق :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ .. (١٤) ﴾

(سورة فاطر)

فكأن الداعى قد يأخذ صفة يدعو بها غير مؤهل للإجابة ، والحق هنا قال : « أجيب دعوة الداع إذا دعان » أما إذا ذهب فدعا غير قادر على الوفاء، فالله ليس مسئولاً عن إجابة دعوته .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يعلمنا أن الإنسان يدعو بالخير لنفسه ، وأنت لا تستطيع أن تحدد هذا الخير ؛ لأنك قد تنظر إلى شيء على أنه الخير وهو شر ، وما دمت تدعو فأنت تظن أن ذلك هو الخير ، إذن فملحظية الأصل فى الدعاء هى أنك تحب الخير ، ولكنك قد تخطيء الطريق إلى فهم الخير أو الوسيلة إلى الخير ، أنت تحب الخير لا جدال ، لذلك تكون إجابة ربك إلى دعائك هى أن يمنع إجابة دعوتك إن كانت لا تصادف الخير بالنسبة لك ، ولذلك يجب ألا تفهم أنك حين لا تجاب دعوتك كما رجوت وطلبت أن الله لم يستجب لك فتقول : لماذا لم يستجب الله لى؟. لا لقد استجاب لك ، ولكنه نحّى عنك حمق الدعوة أو ما تجهل بأنه شر لك. فالذى تدعوه هو حكيم ؛ فيقول : « أنا سأعطيك الخير ، والخير الذى أعلمه أنا فوق الخير الذى تعلمه أنت ، ولذلك فمن الخير لك ألا تُجاب إلى هذه الدعوة » .

واضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ : قد يطلب منك ابنك الصغير أن تشترى له مسدساً ، وهو يظن أن مسألة المسدس خير ، لكنك تؤخر طلبه وتقول له : فيما بعد سأشترى لك المسدس إن شاء الله ، وتماطل ولا تأتيه بالمسدس ، فهل عدم مجيئك بالمسدس له على وفق ما رأى هو منع للخير عنه ؟

إن منعك للمسدس عنه فيه فائدة وصيانة وخير للابن .

إذن، فالخير يكون دائماً على مقدار الحكمة فى تناول الأمور ، وأنت تمنع المسدس عن ابنك ، لأنك قدرت أنه طفل ويلهو مع رفاقه وقد يتعرض لأشياء تخرجه عن طوره وقد يتسبب فى أن يوذيه أحد ، وقد يؤذى هو أحداً بمثل هذا المسدس .

وكذلك يكون حظك من الدعاء لا يُستجاب لأن ذلك قد يرهقك أنت . . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾

(سورة الإسراء)

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾

(سورة الأنبياء)

والعلماء يقولون : إن الدعاء إن قصدت به الذلة والعبودية يكون جميلاً ، أما الإجابة فهى إرادة الله ، وأنت إن قدرت حظك من الدعاء فى الإجابة عليه فأنت لا تُقدر الأمر . إن حظك من الدعاء هو العبادة والذلة لله ؛ لأنك لا تدعو إلا إذا اعتقدت أن أسبابك كبشر لا تقدر على هذه ، ولذلك سألت مَنْ يقدر عليها ، وسألت مَنْ يملك ، ولذلك يقول الله فى الحديث القدسى :

« مَنْ شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »[1] .

ولتعلم ما علّمَهُ رسول الله لعائشة أم المؤمنين . لقد سألت رسول الله إذا صادفت

---

(١) أخرجه البخارى فى تاريخه .

ليلة القدر فقالت : إن أدركتنى هذه الليلة بماذا أدعو ؟

أنظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد علّم أم المؤمنين عائشة أن تدعو بمقاييس الخير الواسع، فقال لها : «قولى : اللهم إنك تحب العفو فاعف عنى»[1] .

ولا يوجد جمال أحسن من العفو ، ولا يوجد خير أحسن من العفو ، فلا أقول : أعطنى ، أعطنى ؛ لأن هذا قد ينطبق عليه قول الحق :

﴿ وَيَدْعُ الإنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾

(سورة الإسراء)

فمَنْ يقول : لقد دعوت ربى فلم يستجب لى ، نقول له : لا تكن قليل الفطنة فمن الخير لك أنك لا تُجاب إلى ما طلبت، فالله يعطيك الخير فى الوقت الذى يريده .

وبعد ذلك يترك الحق لبعض قضايا الوجود فى المجتمع أن تجيبك إلى شىء ثم يتبين لك منه الشر ، لتعلم أن قبض إجابته عنك كان هو عين الخير ، ولذلك فإن الدعاء له شروط ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعونا إلى الطيب من الرزق .

فقد جاء فى الحديث الشريف عن أبى هريرة قوله : « ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء : يا رب يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام وغُذِى بالحرام فأنّى يستجاب له »[2] . إن الرسول يكشف أمامنا كيف يفسد جهاز الإنسان الذى يدعو ، لذلك فعدم إجابة الدعوة إما لأن جهاز الدعوة جهاز فاسد ، وإما لأنك دعوت بشىء تظن أن فيه الخير لك لكن الله يعلم أنه ليس كذلك ، ولهذا يأخذ بيدك إلى مجال حكمته ، ويمنع عنك الأمر الذى يحمل لك الشر .

وشىء آخر ، قد يحجب عنك الإجابة ، لأنه إن أعطاك ما تحب فقد أعطاك فى خير الدنيا الفانية ، وهو يحسبك فيُبقى لك الإجابة إلى خير الباقية ، وهذه ارتقاءات

---

(١) هذا لفظ الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه ، وقال صحيح على شرط الشيخين .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه .

لا ينالها إلا الخاصة ، وهناك ارتقاءات أخرى تتمثل فى أنه ما دام الدعاء فيه ذلة وخضوع، فقد يطبق الله عليك ما جاء فى الحديث القدسى : « ينزل الله تعالى فى السماء الدنيا فيقول : مَنْ يدعونى فأستجيب له أو يسألنى فأعطيه ؟ ثم يقول : مَنْ يقرض غير عديم ولا ظلوم »[(١)] .

ولأن الإنسان مرتبط بمسائل يحبها ، فما دامت لم تأت فهو يقول دائماً يا رب. وهذا الدعاء يحب الله أن يسمعه من مثل هذا العبد، فيقول : إن من عبادى من أحب دعاءهم فأنا أبتليهم ليقولوا : يا رب . إن الإنسان المؤمن لا يجعل حظه من الدعاء أن يجاب ، إنما حظه من الدعاء ما قاله الحق :

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

إن معنى الربوبية والمربوبية أن تقول دائماً : « يا رب » . وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ الأب قد يعطى ابنه مصروف اليد كل شهر ، والابن يأخذ مصروف اليد الشهرى ويغيب طوال الشهر ولا يحرص على رؤية والده . لكن الأب حين يعطى مصروف اليد كل يوم ، فالابن ينتظر والده ، وعندما يتأخر الوالد قليلاً، فإن الابن يقف لينتظر والده على الباب ؛ لقد ربط الأب ابنه بالحاجة ليأنس برؤياه .

والحق سبحانه يضع شرطاً للاستجابة للدعاء ، وهو أن يستجيب العبد لله سبحانه وتعالى فيما دعاه إليه . عندئذ سيكون العباد أهلاً للدعاء ، ولذلك قال الحق فى الحديث القدسى : « مَنْ شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »[(٢)] .

ومثال ذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام حين أُلقى فى النار ، قال له جبريل : ألك حاجة ؟ . لم ينف أن له حاجة ، فلا يوجد استكبار على البلوى ، ولكنه قال

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى .

(٢) رواه البخارى فى تاريخه .

لجبريل : أما إليك فلا ، صحيح أن له حاجة إنما ليست لجبريل ، لأنه يعلم جيدا أن نجاته من النار المطبوعة على أن تحرق وقد ألقى فيها ، هى عملية ليست لخلق أن يتحكم فيها ولكنها قدرة لا يملكها إلا من خلق النار . فقال لجبريل : أما إليك فلا ، وعلمه بحالى يغنى عن سؤالى . لذلك جاء الأمر من الحق :

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ ﴾

(سورة الأنبياء)

ولنتعلم من الإمام على كرم الله وجهه حين دخل عليه إنسان يعوده وهو مريض فوجده يتأوه ، فقال له : أتتأوه وأنت أبو الحسن . قال : أنا لا أشجع على الله .

إذن فقوله : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى » تعنى ضرورة الاستجابة للمنهج ، « وليؤمنوا بى » أى أن يؤمنوا به سبحانه إلها حكيما . وليس كل من يسأل يستجاب له بسؤاله نفسه ؛ لأن الألوهية تقتضى الحكمة التى تعطى كل صاحب دعوة خيراً يناسب الداعى ، لا بمقاييسه هو ولكن بمقاييس من يجيب الدعوة .

ويذيل الحق الآية بقوله : « لعلهم يرشدون » فما معنى « يرشدون » ؟ إنه يعنى الوصول إلى طريق الخير وإلى طريق الصواب . وهذه الآية جاءت بعد آية « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس » كى تبين لنا أن الصفائية فى الصيام تجعل الصائم أهلاً للدعاء ، وقد لا يكون حظك من هذا الدعاء الإجابة ، وإنما يكون حظك فيه العبادة ، ولكى يبين لنا الحق بعض التكليفات الإلهية للبشر فهو يأتى بهذه الآية التى يبيّن بها ما يحل لنا فى رمضان .

يقول الحق :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ
لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ
أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ
وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ
ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ
إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ
تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

بعد أن أورد لنا الحق آداب الدعاء ومزجها وأدخلها فى الصوم ، يشرح لنا سبحانه آداب التعامل بين الزوجين فى أثناء الصيام ، ويأتى هذا التداخل والامتزاج بين الموضوعات المختلفة فى القرآن لنفهم منه أن الدين وحدة متكاتفة تخاطب كل الملكات الإنسانية ، ولا يريد سبحانه أن تظهر أو تطغى ملكة على ملكة أبدا .

يقول الحق : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » وساعة تسمع « أحل لكم » فكأن ما يأتى بالتحليل كان محرماً من قبل . والذى أحله الله فى هذا القول كان المحرم عينه فى الصيام ، لأن الصيام إمساك بالنهار عن شهوة البطن وشهوة الفرج ، فكأنه قبل أن تنزل هذه الآية كان الرفث إلى النساء فى ليل الصيام حراما ، فقد كان الصيام فى بدايته إمساكا عن الطعام من قبل الفجر إلى لحظة الغروب ، ولا اقتراب بين الزوجين فى الليل أو النهار . فكان الرفث فى ليلة الصيام محرماً . وكان يحرم